

تراث القرية.... ووجدان المتلقى...

إذا كانت الأسرة ؛ هي النواة الأولى في بناء المجتمع ، واللبننة الأساسية في ترسيخ التراث ، فإن القرية هي حافظة العادات .. ومخزن الأعراف .. تمد المدن بالغذاء .. وتُفعم الذاكرة بالحوادث .. والسير .. وتُدغدغ المشاعر بالمواويل .. والأقاصيص .. وتُقطر التجارب في الحكم ، والأمثال .. تُشعرنا - إذا ارتبطنا بها - بالعزوة .. والتعاضد .. والتكافل .. والمحبة الجارفة .. من هنا كان لقريتي في نفسي مكانة لا يُضاهيها إلا مكانة الجامعة .. وهي التي أمدتني بالحب الذي استعنت به علي العمل .. وكما كان الزاد ، والزواد الذي نحمله معنا يُعيننا علي التحصيل ، والتعلم ، فإن الزاد المخزون بين جوانحي هو الذي دفعني لإنجاز هذا العمل .. فأنا والقرية متحابان .. أنا منها .. وهي تكمن في داخلي ..

كان آخر مطاف للعائلة هو عزبة البدوهة - عمدة الدمايرة مركز بلقاس دقهلية ؛ حيث وُلدت في صبيحة يوم مُشمس من أواخر شهر يناير ، وأول فبراير سنة ألف وتسعمائة وأربعين .. أي في شهر ذي الحجة من سنة ألف وثلاثمائة وثمان وخمسين من الهجرة النبوية .

أسموني علي اسم الشيخ علي الصفصافي ، أحد الأولياء ، والمتصوفه الصالحين ، والمقام مقامه في المنطقة .

توفيت والدتي المرحومة فريدة حسن منصور ، وأنا لم أتجاوز الثانية بعد .. تركتني وهي تغالب المرض ، وهي تلهث بالدعاء للطفل الرضيع .. ولهذا ، فأنا لا أتذكر ملامحها .. وإن كانت حسب أقوال الجميع ، تجمع بين جمال الخلق .. والخلقة .. حباها الله بجمال إنعكس علي كل من أنجبتهم من شريك حياتها ..

أما عن والدي .. فينحدر من عائلة كبيرة في مركز قطور غربية وظروف رحل مع والده إلي قرية الخبارية بالقرب من "البحر الصغير" علي فرع دمياط بالقرب من مدينة المنصورة .. وُلد - رحمه الله - في أواخر الثمانيات من القرن التاسع عشر .. تعلم

في كُتاب القرية ، ولكن حالت الظروف دون دخوله إلي الازهر الذي كان يستعد له .. كان من أكبر الأسباب هو الاستعمار الإنجليزي الذي احتل الأرض والنفوس ، وكم الأفواه في مصر منذ سنة ١٨٨٢ م .

- كره الوالد الإستعمار ، وقاومه مع التيار القومي الذي كان يقف خلف مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وثورة سنة ١٩١٩ م .. وكان ضمن من أغلق جنود الإحتلال عليهم جامع الخيرية .. وضيقوا عليه الخناق ، فانتقل بعد وفاة والده مع أشقائه إلي قرية الكوم الأحمر ، بعد أن زوج أخته الوحيدة من عمدة الخيرية .

- استقر به المقام مع من سبقوه من الآقارب ، والآعمام .. وأشتري مساحة كبيرة من الأرض من شركة البحيرة في زمام القرية التي وُلِدْتُ أنا فيها .

- كان وجيهاً .. شهماً .. كريماً .. لا يجامل في الحق .. لا يُداري ، أو يجاري الظالم مهما كانت منزلته .. فحققت عليه ، وعلينا النفوس الدنيئة فكادوا له ، وتأمروا عليه .. وشهدوا زوراً ، وبهتاناً ، علي عقود بيع وهمية ، تُفيد أنه قد باع أرضه ، وأرض أخوته إلي وكيل كنيسة القديسة دميانه نجيب أفندي تكلا .. طال الصراع القضائي بيننا ، وبين هذا التكللوي ما يزيد عن خمس وثلاثين سنة ، ولم تُحسم القضية .. بل سُرقت الأوراق .. وهربت إلي اليونان .. ودخلت أنا الجامعة ، وكان ذلك عوضاً لوالدي .

كان والدي من أشد الكارهين للإستعمار ، والمحاكم المختلطة ، وكل أشكال الظلم ، والإقطاع .. كان يُشايخ ، ويدعم الشيخ حسن البنا .. تحمس جداً للثورة .. وأحب من صميم قلبه الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ، كان يحكي لنا ، ويقص علينا مدي المعاناة التي مرت بها مصر ، ويقول (ولا يعرف قيمة الثورة .. وما قام به جمال عبد الناصر ، ورفاقه ، إلا مَنْ ذاق طعم الذل علي يد الإستعمار ، وعَرِفَ الظلم علي أيدي ذئاب الإقطاع .. والحرمات الذي كانت تعيشه مصر عامة ، والقرية المصرية خاصة ..) .

- كان بالنسبة لي الأب ، والأخ ، والصديق ، والقُدوة ، غرس في نفسي منذ الصغر كيف أحب كل الناس .. إلا الظالم .. والحاقد .. والمنافق ..

- "ياعزيز .. ياعزيز كُبة تأخذ الإنجليز.. " عندما سمعها مني .. وأنا أرددها سنة ١٩٤٨ م قرر أن يُغيّر مسار حياتي .. وأن يُلحقني بالمدرسة الاميرية بدلاً من الكتاب .. وأن أتابع في التعليم العام .. بدلاً من الازهر ..

- لم يكن يعترض ، أو يخاف عليّ إذا عرف أنني شاركت في المظاهرات التي كانت تقوم بها المدرسة الثانوية في بلقاس .. ويأتي طلابها ، ويقتحمون المدرسة الاميرية ، ويطلقون سراحنا للمشاركة في المظاهرات قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ م .

- علمني كيف أتحمل المسؤولية منذ الصغر ؛ فالمطلوب مني ، وأنا ابن الثامنة ، وفي الغربية ؛ في المركز حيث المدرسة الابتدائية ، وبعدها الإعدادية ، وفي المنصورة حيث التعليم الثانوي ، وفي العاصمة - القاهرة ، حيث الجامعة أن ألتزم بقواعد الخلق القويم ، وأن أتمسك بأهداب الدين .. وأن أجد في طلب العلم ، لكي أعود إلي القرية ناجحاً .. فالنجاح مطلوب ، «والكحك» مرفوض .. فأنا الامل .. وأنا العوض عن كل ما فقدته العائلة ..

- كان إرتباطي بالقرية وثيقاً .. أعود إليها في عطلة آخر الاسبوع لناخذ الزوادة ، ونحن في الابتدائي ، والإعدادي .. وكل أسبوعين ، وأنا في الثانوية في المنصورة .. وفي نصف السنة ، والآجازات الصيفية وأنا في الجامعة ..

- تعلمت في القرية كثرة القراءة .. فنهار القرية طويل ، ولياليها القمرية تُحب السمر .. كان الكل لايراني إلا ممسكاً بكتاب ، أو مجالساً لشيخ المرحوم الشيخ محمود حسن البسطويسى ، أو القاريء النهم الشيخ صادق حسن الذي كان شاعراً فذاً .. ولكنه مات ، دون أن يسمع به أحد . كان الإلتزام بالعادات ، والتقاليد ، والإلتزام الخُلقي رصيدي الذي لا يمكن التفريط فيه أبداً .. وهو الذي كوّن رصيد الحب لدي فجعلني .

- أفتح في الصيف فصلاً لمحو الامية .. وأنا في الثانوي .. وتعلم فيه من أصبحوا من وجهاء القرية ..

- لما كنت الجامعي الوحيد فيها .. فاقمت بمشاركة طلاب المراحل الأخرى حفلات تمثيلية في الصيف .. وثلثنا دعماً كبيراً ، من شيخ البلد المرحوم الشيخ

حسنيين لبن ، ومن الأمين ، والمؤتمن علي كل أوراق ، وعقود وأسرار القرية ، والقرري المحيطة أحمد أفندي عبد الله الدولتلي .. وكان رحمه الله مثقفاً .. محباً للمتعلمين، والمثقفين .. وأذكر أنه كتب لنا تمثيلية شعرية عن عدل الفاروق عمر بن الخطاب ، وكان يحضر معنا التدريبات ، ويساعدني في الإخراج .. ويدعمنا أمام التيار المعارض من أهل القرية .. ربط الحب ، والاحترام بيني وبينه ، رحمه الله ، وبين كل الأبناء ... ولم يكن ياتمن احداً لمصادقة الأبناء من شباب القرية سواي ، ونتج عن هذا الحب أن زوجت سعداً ، الإبن الأكبر ، من شقيقة زوجتي فأصبح عديلي ، ومحموداً الابن الأصغر من إبنة أختي فصرنا آقارب .. وهكذا .. يخلق الحب .. والإحترام .. النسب .. والعصب .. والقربة .

- أقمتم بالجهود الذاتية سنة ١٩٥٧ م مشروعاً لإنارة القرية ، فلم تكن قرانا حتي ذلك التاريخ تعرف المدارس ، أو المياة النقية ، أو الكهرباء أو الوحدات الصحية .. أو حتي الطرق المرصوفة .

أشهد الله أن بعضاً من سيدات القرية المُعدّمات ، كن يُقدمن لنا بعض الطيور ، أو الحبوب لكي نبيعها .. ويشاركن بثمانها في مشروع الإنارة

أقمنا للمشروع في ليلة إفتتاحه مهرجاناً يُشبه مهرجان إيقاد الشعلة في الأولمبياد .. أتى صديقي الأستاذ طاهر عز الرجال ، وكان مدرساً بالتربية والتعليم ، بشعلة مشتعلة من خارج العزبة ، إلي ميدان الجامع حيث وسط القرية ، والشعلة الرئيسية .. وفي اللحظة المحددة ، وعند سماع الصفارة قام كل الأصدقاء ، والواقفون أمام الفوانيس بإشعالها .. وفي لحظة واحدة ، ومفاجئة ، تحولت القرية كلها بؤرة مُضيئة .. وسط ظلام حالك ، في إحدى ليالي النصف الثاني من شهر رمضان .. وعقب صلاة العشاء ، والتراويح . ومن هنا أدرك شباب القرية ، وأهلها ، والقرري المحيطة ، الفرق بين النور ، والظلام وجدوي المشروع ولكن للأسف لم يجاريننا فيه أحد .. وأظنه ظل يخدم القرية حتي دخول الكهرباء

- كان الإلتزام بالأخلاق القروية ، والحرص علي السمعة الطيبة ، ومصادقة الكتاب .. والتواضع مع الآخرين هو الرصيد الذي خلق لي منبعاً من الحب لا يجف .. ورصيماً من الثقة ما زال موجوداً ..

- لا أستطيع أن أنسى الفرحة التي غمرت كل أهل القرية ، عندما نجحت وكان ترتيبي الأول ، وعقب تعييني معيداً .. وعند سفري إلى البعثة .. والإستقبال الحاشد والجار من كل أهل القرية عندما جئت لزيارة خاطفة لهم خلال مدة البعثة في استانبول .. تجمع الاهالي علي شاطيء الترعمة .. أنزلوني من السيارة .. تبادلني الاحضان .. وسط الزغاريد ، وأكواب الشربات حتي وصلت إلي أحضان أبي .. وظلت الفرحة .. والبهجة إلي أن سافرت ثانياً ..

- لا أستطيع أن أنسى مدي فرحتهم بي ، إذا ما سمعوني في المزياح ، أو شاهدوني علي شاشة التلفاز ..

- أهالي قريتي الآحباب .. أنا فخور بكم .. اعترز بأبوة الشيوخ منكم .. وأتوسل إلي الله بالدعاء والغفران لمن سبقونا إلي جنة الخلد، وأطلب الصفح ، والمعدرة من الاصدقاء .. ومن الشباب .. والأشبال .. والبراعم ، لأنني لم أستطيع أن أقدم لقريتي الحبيبة سوي الأمنيات الطيبة .. والكلمات التي أشهد الله أنها صادرة من القلب .

- إنني اعترف ، أنكم جميعاً وراء أي نجاح أحققه .. لا املك إلا قلبي .. وكلمتي ... وشجاعتي علي الإعراف بالتقصير تجاهكم .. فلا أستطيع أن ألبى مطلباً إدارياً .. أو أقوم بخدمات اجتماعية تؤدي إلي مغام .. أو قضاء مصالح .. لا تقصير مني .. بل رغبة في أن أحفظ لكم كرامتكم ، التي لا أود أن تُهدد في شخصي في المكاتب البيروقراطية لإدارية العفنة .

- العَوض عندي ، أن أسجل بإسمكم ، عطاء كل فرد منكم بين صفحات كتبي .. كلما حانت الفرصة ... وها أنذا أستعير منكم أجمل العادات .. وآحلي الاعراف .. أسجل ليالي السهر في رمضان .. والنقوطة في الافراح .. والوقوف كرجل واحد في التعزية والمآتم ... والزمال في العمل .. والتزاور في المرض .. والتكامل في الملهمات .. أهديت لكم جميعاً .. شيوخاً .. وأشبالاً .. وبراعم .. كتابي (يشار كمال والقصة التركية القصيرة ..) ولسوف أخصص كتاباً في المستقبل لسيرتي الذاتية .. وكيف كانت قلوبكم ورائتي .. ودعواتكم هي سندي ، ونبراسي في كل مراحل الإرتقاء من حصيرة الكُتّاب إلي منصة الجامعة .. وكيف كان الجلوس معكم علي الحصيرة أو فوق

المصطبة ، أو علي الكنبه أغلي عندي من موائد الملوك ، والأمراء ، والوزراء ..
والسفراء .. لم يكن يعلوها إلا مناقشة العلماء ، أو محاوره المثقفين في المؤتمرات ..
والندوات .. أو الإختلاء إلي النفس لمحاسبة الذات .. أو الجلوس علي منصة القضاء
للحكم علي أطروحه الماجستير ، أو الدكتوراه .. أو فحص الإنتاج العلمي ، لأحكم
بصلاحية النشر ، أو نيل جائزة .. أو أن صاحبه يرقى لشغل وظيفة الأستاذ ،
أو الأستاذ المساعد الشاغر بإحدى الجامعات المصرية ، أو العربية ..

كان والدي رحمه الله ، يتمني أن أكون قاضياً .. (ولما) كرهت الحقوق لمعاناتنا
من المحامين .. والمحاكم .. حققت له أمله في أن أكون حكماً عدلاً بين طلابي ..
وطالباتي .. وأن أكون قاضياً مُنصِفاً في التحكيم العلمي .. وترجماتي .. لا في
الحكم .. والضبط الجنائي .. طابت روحك ياوالدي .. ولن أحميد عن الصراط الحق
التي رسمتها لي مهما كانت الضغوط .. أو المغريات ..

- أشهد الله أنني أتمثلك في قول الحق ... ومقاومة الظلم .. أرفع رأسي ، وهامتي
إمام كل المغريات .. أرفض كل أشكال النفاق السياسي ، والإداري .. والثقافي ..
والعلمي .. لأنك علمتني كل ذلك ..

- كان أهل قريتي .. بحفلات العرس .. والسمر في الليالي القمرية وحفلات
الصيف المجانية .. وراء أختياري للمسرح في أطروحه الماجستير ، وحياء القرية ..
والترابط العائلي .. والحب الدفين في القلوب البريئة .. هي التي أصلت في نفسي ..
وآعماق لا شعوري .. العادات .. والأعراف والقيم العريقة التي أستقي منها رحيق
هذا الكتاب ...

إن هذا الكتاب فيه خلاصة ملاحظاتي .. ومشاهداتي حول الأعراف ..
والعادات .. والتقاليد .. لقد منحني الله - ببركة دعاء الوالدين الفرحه بأن أعيش
في تركيا أكثر من خمس سنوات .. وفي إيران ... وتونس والمغرب .. والسعودية ..
والأردن .. وسوريا .. ولبنان ما يزيد عن عشر سنوات .. سجلت فيه كل ماوعته
الذاكرة عن الأسرة .. منذ كانت نواة .. حتي تصل إلي حجم العائلة الكبيرة ..
حاولت قدر طاقة البشر أن أكون منصفاً ، فيما أسجله .. محاولاً تاصيل كل ما
راودني من أفكار .. إلي أن وقع في يدي كتاب (الأعراف .. والعادات - المنظور

التركي) فجعلته صنواً لما سجلت ، وتأصيلاً لما وعته الذاكرة وشُحنت به طوال فترة إقامتي التي تجاوزت الخمس سنين في تركيا الشقيقة .

- إذا كانت هناك كلمة أخيرة .. قبل أن أصل إلي كلمة النهاية في المقدمة .. أقول أن الحب هو القيمة الأساسية في بناء أسرة ذات قيم أصيلة .. الحب هو الإلتزام الخُلقي .. الحب هو الذي يقينا السقوط في مستنقع الرذيلة .. الحب هو انذي يحفظ للإسرة توازنها .. وللأمة نماؤها وتطورها .. كيف .. ؟

- ذات مساء حاورت عن بُعد بنت حواء التي كانت تروم تكوين أسرة وتبني رسالة .. هي ترفض الحب .. وأنا أستعذبه .. فهو البناء .. هو العطاء .. هو الخليقة .. فكان ذلك الحوار .. ! انت يا ..

- حبي الذي لم أعشه بعد ..

شوقي الذي أتمنى له الوصال ..

رغبتني التي يمكن أن تذوب .. أو تزول .. بمجرد السماع إليك ... أو التأمل في عينيك ..

- قد تسالين .. لماذا .. ؟

وكيف يكون هذا الذي أسميه حباً ... ؟

- نعم .. لك الحق .. وألف حق في أن تسالين ..

ولي الحق .. ألف حق .. في أن أحب .. وأن أُحِبَّ .

- تُحب ... !

- نعم أحب ..

- وما الحب .. الذي تبتغيه .. أو ترومه .. ؟

- الحب ..، يابنت حواء ... التي تسالين ..

هو الحياة .. هو الكيان .. هو الوجود ... هو الأمل ..

- كيف .. ؟

.. كيف .. !

نولا الحب ... ياغزة النفس .. ما كان الوجود .. وما كانت الحياة ..

تعرفين كيف .. ؟

فلولا الحب لما خلق الله سبحانه الحياة .. ولما خُلِقَ الوجود ... فقد خُلِقَت الحياة من أجل الحب .. وخُلِقَ الوجود من أجل الحب ... فالحب هو الحياة .. هو سر الوجود ..

أيمكن أن يكون الله قد خلق آدم عبثاً .. ؟ كلا ... لقد خلقه .. لأنه أحبه .. ولأنه أحبه .. خلق له الحب .. خلق له الحياة .. خلق له الوجود .. لكي يستمتع به .. وخلق معه الحب .. ومن أجل هذا الحب .. خلق له حواء .. من نفسه .. ولنفسه أليس كذلك .. يانسل حواء .. ؟ .. ألم يحب آدم .. حواء .. ؟ أولو لم يُحبها ... أيمكن أن يكون قد أطاعها ... ! إنه أحبها ... فأطاعها .. فذاها .. أطاع الحب .. وعصي الخالق ...

الخالق يُحب ... يحب خليقته .. صنيعته .. أحب آدم ، وحواء .. أحب حتي خطيئتهما ... فغفرها لهما ... أحبهما ... فوهب لهما الحياة ...

إذن .. الحب .. هو سر الحياة .. الحياة بالحب تحلو .. تنمو .. وتتطور ... تخيلي .. يانسل حواء .. الحياة بدون حب ... ستكون جحيم .. بل ستكون أقسي من الجحيم ... الوحدة جحيم .. الحياة بدون حب جحيم مستعر .. حتي الجحيم بالحب يحلو ... والألم ... بالحب يُستغذب ...

الحب .. ياكل الحب .. ليس جسداً ... ليس نزوة ... ليس رشفة من شفاة ... بل ذوبان الروح ، في الروح .. هيام المحب بمن أحب ...

الحب ... وصال ... الحب ... هيام ... الحب أمل ... الحب عطاء ... الحب بسة ... والبسمة عطاء .. والعطاء قمة الحضارة .. الحضارة من صنع الحب ..

- الفراعنة .. يانسل حواء .. أحبوا .. فبنوا المعابد .. أحبوا ... فبنوا المقابر .. خاضوا المعارك .. أقاموا المسلات .. نحتوا التوابيت .. عرفوا التحنيط لكي يُخلدوا

الحب .. بالحب عرفوا الترحيد .. فالحب يُبعد عن الخطيئة .. يَعصم من المعصية ..
شيد تاج محل .. أنزل الملك عن عرشه ...

-

- نعم أنا ... أحب ... وأتوق للحب .. وأعيش بالحب وأغرس الحب ... وأنتج
بالحب ... وأتنفس حباً ...

فبالأسرة التي تقوم علي الحب تصمد .. وتقاوم .. تبني .. وتُحافظ علي ما
شيدته .. وما إكتسبته من قيم .. تتسلم الراية مرفوعة ، وتُسلمها إلي الأبناء ..
ناصعة أبيض ..

إنني أقدم هذا الكتاب .. كصرخة إلي كل أب ... وكل أم ... كل أسرة .. وكل
مسئول عن التراث .. وحفظ كيان الأمة ... تراثنا هو الكيان الذي يحمينا ..
هو الذي يحفظنا ضد الزوبان والإنصهار .. والتهميش .. إننا لا نرفض الحديث .. أو
التحديث بل نسعي إليه .. لكي نستنشقه من بين برائن الأسود ... وفم الشيطان ..
بشرط ألا يقتل فينا هويتنا .. أو يخنق في صدورنا ذاتيتنا .. وألا يطمس لنا
المعالم .. أو يُضيع منا ، أو من فلذة أكبادنا الصراط المستقيم .
وعلي الله القصد والنية ...

الصفصافي أحمد المرسي القطورى

أرض الجولف - القاهرة

الإثنين الثاني والعشرين من صفر سنة ١٤٢٠ هـ

السابع من يونيو "حزيران" سنة ١٩٩٩ م